مجلة الحكمة للدراسات التربوية والنفسية
Eissn :2602-5248 Issn : 2353-0456
المجلد 10 / العـدد: 04(2022)، ص: 60- 90

معالم الفكر التّربوي عند "مالك بن نبي"

Milestones of educational thought at "Malik bin Nabi"

نعيمة بن صالح[1]

[1]جامعة الجزائر02 (الجزائر) **naimabensalah1@gmail.com**

تاريخ الاستلام: 2022/11/21 تاريخ القبول: 2022/11/29 تاريخ النشر: 2022/12/07

ملخص:

جاءت هذه المقالة العلمية للوقوف على **المعالم الرّئيسية للفكر التربوي في المشروع الفكري النهضوي لمالك بن نبي**، من خلال الكشف عن ماهية الفكر التربوي، مفهوم التربية وأهدافها، علاقة الرّؤية الحضارية بالفكر التربوي، من خلال علاقة التربية بالتغيير بنوعيه النفسي والإجتماعي، والصلة بين الثقافة والتربية، وأخيرا التربية والانفتاح على الآخر. **وكان هدفنا من ذلك هو التعريف ببعض جوانب الفكر التربوي في المشروع الإصلاحي والحضاري لمالك بن نبي و الكشف عن بعض الأبعاد التربوية في الفكر الحضاري وإمكانية الاستفادة منها في واقعنا العملي.**

ومن النتائج التي توصّلنا إليها هو أنّ التربية في فكر مالك بن نبي هي عملية تثقيف متواصلة للفرد وللمجتمع معا، باعتبارها عملية اجتماعية متميزة تقوم بنقل ثقافة المجتمع لأفراده وبعملية التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري. وإنّ ارتباط التربية بالثقافة لهو تعبير عن إمكانية التعايش مابين أفرد المجتمع الواحد منه إلى المجتمعات الأخرى، وبذلك تكون التربية وسيلة فعّالة لتحقيق النّمو الحضاري والحوار بأشكاله المختلفة بما فيه حوار الثقافات والحضارات، مع ضرورة المحافظة على الخصوصية الثقافية للمجتمعات العربية والإسلامية.

كلمات مفتاحية: الفكر التربوي، مالك بن نبي، الحضارة، الثقافة، التعايش الثقافي.

Abstract:

This scientific article came to stand on the main features of educational thought in the intellectual renaissance project of Malik bin Nabi, by revealing the nature of educational thought, the concept of education and its objectives, the relationship of civilizational vision with educational thought, through the relationship of education to change in both its psychological and social types, and the link between culture and education, Finally, education and openness to the other. Our aim was to introduce some aspects of educational thought in the reform and civilizational project of Malik bin Nabi, and to reveal some educational dimensions in civilizational thought and the possibility of benefiting from them in our practical reality.

One of the results that we reached is that education in the thought of Malik bin Nabi is a continuous process of educating the individual and society together, as a distinct social process that transfers the culture of society to its members and the process of social change and civilizational construction. The connection between education and culture is an expression of the possibility of coexistence between the members of one society and from it to other societies. Thus, education is an effective means to achieve civilized growth and dialogue in its various forms, including

the dialogue of cultures and civilizations, with the necessity of preserving the cultural specificity of Arab and Islamic societies.
Keywords: educational thought, Malik Bennabi, civilization, culture, cultural coexistence.
Keywords: educational thought, Malik Bennabi, civilization, culture, cultural coexistence.

***المؤلف المرسل:** نعيمة بن صالح

1-مقدّمة:

ونحن نستقرئ كتابات مالك بن نبي نجده يريد بناء مشروع فكري نهضوي تهتدي به الأجيال المسلمة في عملية البناء والتّجديد الحضاري، ويصيغ فرضية فكرية مفادها أنّ المشكلات التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية-منها الجزائر- ما هي إلّا مشكلات حضارية بالأساس، فلا يمكن برأيه تحليل وتفسير المشكلات السّياسة والاقتصادية والثّقافية بما فيها التّربوية التي تعيشها الأمة الإسلامية بمعزل عن الرّؤية الحضارية الشاملة التي تولّدت عنها.

لذلك، نريد في هذا المقال العلمي أن نسلّط الضوء على **الفكر التّربوي عند مالك بن نبي**، ومبرّرنا في هذا التناول المعرفي مردّه الفشل الذريع الذي منيت به المشاريع الإصلاحية المتعدّدة المشارب والمختلفة الإيديولوجيات التي عرفتها الأمة العربية والإسلامية، والشواهد الواقعية خير دليل على ذلك، حيث فاقمت هذه المشاريع من حدّة المشكلات وزادت من معدّلات الانحطاط والتردّي الحضاري، لأنّها في تصوّرنا لم تُعنَ بمشكلة الإنسان المسلم بقدر عنايتها بالبيئات التي يحيا فيها هذا الإنسان، وغاب سؤال **التربية** في مدوّناتها الفكرية.

أما المبرّر الثاني لاشتغالنا على هذا الموضوع، فنرى أنّ **المسألة التّربوية** تكتسي أهمّية بالغة في زمننا الرّاهن، نظرًا للضغوط التي أصبحت تفرضها ظاهرة العولمة على الأفراد والمجتمعات، حيث تعمل على تنميط الأفراد والجماعات وفق البراديغم الاستهلاكي، وتسعى إلى القضاء على الخصوصيات الثّقافية للمجتمعات الإنسانية بحجة كونية النّموذج الحضاري الغربي. لذلك، يصبح السعي إلى بناء الذّات المسلمة لمواجهة التحدّيات الخارجية أكثر من مجرّد ترف فكري، والوسيلة المثلى تكون عن طريق **بناء فلسفة تربوية جديدة** تستهدي بها الأجيال المسلمة للدّخول إلى دورة حضارية جديدة. ناهيك عن مبرّر ازدياد التّواصل والاحتكاك بين الحضارات والأفكار وتزايد التحدّيات وتسابق الحضارات من أجل المحافظة على خصوصياتها الثقافية وتميّزها، وازدياد التحدّي إذا تعلّق الأمر بالتربية وتنشئة الأجيال. إنّنا نجد في هذا السياق دعوة مالك بن نبي إلى **تنشئة اجتماعية تربوية** تجعل من **التربية وسيلة لإحداث التغيير الاجتماعي والنّمو الحضاري والتّعايش مع ثقافات وحضارات الآخر مع المحافظة على الخصوصية الثقافية واللّغوية والعقائدية للمجتمعات العربية الإسلامية عامة والجزائرية خاصة.**

إنّه لا أحد يشكّك في أنّ العولمة أصبحت أمرا واقعا اليوم، وأصبح لزاما على الكثير من المجتمعات إعادة النّظر في مسلّماتها التربوية والثقافية والأخلاقية بقصد التكيّف والمشاركة في إنتاج الثقافة الإنسانية، وكان من الواجب على رجال التربية اليوم مراعاة القيم الجديدة التي فرضتها الحياة الرّاهنة من جهة، لكون الشعوب تختلف بمقوّماتها ومميّزاتها من جهة أخرى، وبقاء الأمة ببقاء مقوّماتها ومميّزاتها، والحلّ لمشكلات الحاضر واستشراف المستقبل ما لم يتأسّس في معطيات الموروث الثقافي للمجتمع، فلا بدّ من **استنطاق فكر مالك بن نبي واستقراء فلسفته ومنهجه التربوي** بغية إيجاد حلّ لمشكلة العولمة بما تحمله من دلالات الوحدة والشمولية وطمس حدود المجتمعات السياسية وخصوصياتها

الثقافية. إنّ **مالك بن نبي يمتلك مشروعا تربويا** مجتمعيا وإنسانيا متكاملا، له **منابعه الفلسفية، وأهدافه، ومناهجه ووسائله العلمية** في بناء الفرد وإصلاح المجتمع العربي والإسلامي، فالفكر التربوي لديه فكر أصيل صادر عن متطلّبات المعاصرة، فكر واع بمتطلّبات التّغيير **يجمع بين مقتضيات الأصالة والمعاصرة** ويجعل ما هو **عالمي متوقّفا على ما هو خصوصي** دون الانغلاق على الذات، وقد سبق عصره وأقرانه في ذلك، ونحاول من خلال هذه المقالة أن نستنطق هذا الفكر التربوي الإنساني **بمنهج إستقرائي وتحليلي نقدي** والوقوف على تجربة بن نبي الرّائدة ومنهجه في المجال التربوي في الجزائر خصوصا والوطن العربي عموما.

لذلك، جاءت هذه المقالة العلمية للوقوف على **المعالم الرّئيسية للفكر التربوي في المشروع الفكري النهضوي لمالك بن نبي**، من خلال الكشف عن علاقة الرّؤية الحضارية بالفكر التربوي، والصّلة بين الثقافة والتربية في المجتمعات الإنسانية، وموضع العقل التطبيقي في **الفكر التربوي** عند مالك بن نبي الذي يحاول أن يربط بين العناصر الحيوية في الحياة والمتمثّلة في (التراب-الإنسان – والوقت). ويمزج هذه العناصر بالثقافة ليعطي بذلك مفهوما للحضارة، فهو يسعى من خلال أفكاره وتوجيهاته إلى صناعة رجال الحضارة المميّزين بشخصياتهم وبثقافاتهم عن الحضارة الغربية ومقوّماتها، ولن يتأتّى له ذلك إلّا عن طريق **التربية** على هذه الثقافة الأصيلة الضاربة بجذورها في عمق التاريخ، اتّخذها -بن نبي- منطلقا لتحليل وتشخيص واقع الأمة واقتراح الحلول لمعالجة مشكلاتها والعمل على نهضتها، وفي هذا الإطار يأتي هذه المقال لتسليط الضّوء على **الفكر التّربوي لدى مالك بن نبي ومنهجه في بناء الفرد والمجتمع** في ظل الحضارة الإسلامية، من خلال التطرّق إلى بعض العناصر ذات العلاقة بالموضوع وذلك بهدف التّصدي للعولمة الثقافية التي أدرك مالك بن نبي خطورتها-كونه

سبق جيله-لأنّها في الحقيقة ليست إلّا صورة لاحتواء الغزو الثقافي بشكل جديد. وما أحوج مجتمعنا العربي المعاصر- والجزائري خصوصا- إلى فكر مالك بن نبي الذي يقدّم اجابات موضوعية لفكرة العولمة الثقافية، وكيف يمكننا الاستفادة منها في المشروع التربوي الإصلاحي دون مواجهة تقود الى صراع حضاري . وهذا لهدف الوقوف على **منهجه التربوي والإصلاحي** وتقديم قراءة موضوعية لأفكاره التربوية التي تقدّم مشروعا للبناء الحضاري والتعايش السلمي ومن ثمّ تقويم جهد مالك بن نبي- الذي يضاف إلى جهود المصلحين ومساهمته في الجانب التربوي والإصلاحي في المجتمع العربي.

يهدف هذا المقال إذن إلى إبراز بعض المعالم التربوية التي تضمّنها المشروع الحضاري والإصلاحي للمفكّر "مالك بن نبي". هذه المعالم التربوية، التي تؤكّد بما لا يدع مجالا للشك، أنّ جوانب كثيرة من الفكر التربوي لهذا المفكّر، والذي تميّز بنظرة مستقبلية واستشرافية، لا تزال تحتفظ بقيمتها العلمية والعملية إلى يومنا هذا. لذلك تكون **الإشكالية الفلسفية حول طبيعة ومعالم الفكر التربوي عند مالك بن نبي؟ وهل يمكننا الاعتراف بوجود فلسفة تربوية في فكره لها أسسها وتطبيقاتها وأهدافها؟**

ونقترح في معالجتنا لهذا الموضوع العناصر التالية:-

-ماهية الفكر التّربوي عند مالك بن نبي.

-مفهوم التربية وأهدافها.

-التربية والتّغيير: النفسي والإجتماعي.

- التربية والثقافة.

معالم الفكر التّربوي عند "مالك بن نبي"

-التربية عند مالك بن نبي وتحدّيات المرحلة(التعايش الثقافي في ظلّ العولمة والانفتاح على الآخر).

-الخاتمة: نتائج البحث.

2. ماهية الفكر التّربوي:

تتحدّد ماهية الفكر التربوي لمالك بن نبي في ثلاثة عناصر تكوّنه وهي الإنسان، المجتمع، والعلم، فالنّظر إلى طبيعة الإنسان، طبيعة المجتمع، وكيفية النّظر إلى العلم والمعرفة هي ثلاثية تشكّل في مجموعها نظرة بن نبي الفلسفية للفكر التربوي. والتي يمكننا توضيحها كما يلي:-

1.2-الإنسان:

تتحدّد نظرة مالك بن نبي إلى الإنسان من خلال إعادة صياغة نفسيته، وذلك بترميم الإنسان المسلم –إنسان ما بعد الموحّدين- المسلوب الإرادة والقابل للإستعمار، وإعادة تكييفه من جديد وتأهيله، ليضطلع بمهمّة إعادة البناء. وهنا يتناول مالك بن نبي بناء **الفرد** مقابل **الشخص**، فهو يتناول مفهوم الفرد بالتحليل النفسي التربوي لشخصية الإنسان المسلم المعاصر الذي صنعته تراكمات الواقع الاجتماعي عبر ظروف تاريخية فكرية منذ عصر الانحطاط.

إنّ نظرة مالك بن نبي للإنسان هي نظرة مزدوجة لا تخرج عن إطار ما عرف في علم الاجتماع بالإنسان الطبيعي الذي يتحوّل إلى إنسان اجتماعي، حيث يوظّف

بعض المفاهيم مثل **مفهوم الفرد الخام، مفهوم الإنسان الطبيعي، ومفهوم الإنسان المكيّف**. ففي حالة الفرد الخام نجده يرى أنّ "**الطبيعة تأتي بالفرد في حال بدائية، ثم يتولّى المجتمع تشكيله**" (مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، 2000، ص. 65)، فهو يستعمل مفهوم الفرد الخام الذي لم يشكّله المجتمع بعد، وهو يستعمل هذا المفهوم كأداة تحليلية للعملية التربوية لإنسان ما زال لم يخضع بعد للتكييف التربوي الاجتماعي، ويعني به ذلك الكائن الفطري لحظة ولادته الذي يستهدف إعداده للاندماج في الحياة الاجتماعية والشروع في القيام بالدّور الذي ينسجم مع استعداداته الفطرية ومهاراته المكتسبة، بمعنى أنّ الإنسان يولد فردا خاما مزوّدا باستعدادات ومواهب وقدرات كامنة تؤهّله للقيام بالوظيفة التي خلق من أجلها، إذا ما أحسن تكييف هذه الاستعدادات والمواهب والطّاقات من جهة، وتأهيله لهذه الوظيفة من جهة أخرى.

أما إنسان الفطرة والغريزة، فهو الذي تتولّى الفكرة الدينية إخضاع غرائزه لعملية تكييف" **ففي هذه الحالة يتحرّر الفرد جزئيا من قانون الطبيعة المفطور في ذاته، ويخضع وجوده كلّه للمقتضيات الرّوحية التي أوجدتها الفكرة الدّينية في نفسه، إيجادا يمارس معه حياته في هذه الحالة الجديدة طبقا لقانون الرّوح**". (مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، 2000، ص.100) ، أي أنّ الدين يتدخّل في عملية البناء ويتدخّل مباشرة في عملية التّكييف التي هي عملية ترشيح أو تنحية جانب، وعملية انتقاء أو بعث للإحساس من جانب آخر كما يتصوّر بن نبي. (مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، 2000، ص. 69)

في حين أنّ الإنسان المكيّف يمثّل مرحلة إنسان قد تمّ تكييفه تربويا، يسمّى الإنسان في هذه الحالة الشخص أو الفرد المكيّف والمؤهّل للانتماء والاندماج

في المجتمع، والمؤهّل للدخول في تفاعلات وعلاقات اجتماعية للقيام بأدوار يتطلّبها انتماؤه. وبهذا يتحوّل الفرد من كونه فردا إلى كونه شخصا.

كما لا نستثن حديثه عن إنسان ما قبل الموحّدين، وإنسان ما بعد الموحدين(إنسان الحضارة)، فالتاريخ عند ابن نبي يبدأ "**بالإنسان المتكامل الذي يطابق دائما بين جهده وبين مثله الأعلى وحاجاته الأساسية، والذي يؤدّي في المجتمع رسالته المزدوجة، بوصفه ممثّلا وشاهدا**".

2.2.المجتمع:

ينطلق مالك بن نبي في تصوّره لبناء المجتمع كتنظيم اجتماعي يتّسم بالإستمرارية والتغيير، يجمع بين الفرد والجماعة ويحقّق للإنسان التطوّر والنّماء، إنّه عبر شبكة العلاقات الإجتماعية هو العمل التاريخي الذي يتطوّر فيه الإنسان من كونه فردا ليصبح شخصا، أي بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات تربطه بالمجتمع الذي يعرّفه بكونه: "**ليس مجرّد جمع لعناصر أو أشخاص تدعوهم غريزة الجماعة إلى أن يتكتّلوا في إطار اجتماعي معيّن. هذه الغريزة وسيلة لإنشاء المجتمع وليست سببا في إنشائه، إذ يضمّ المجتمع أكثر من مجرّد مجموعة من الأفراد الذين يؤلّفون صورته، يضمّ عددا من الثوابت التي يدين لها بدوامه وبتحديد شخصيته في صورة مستقلّة تقريبا عن أفراده**" . (مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، 2000، ص.11)

إنّ المجتمع يهدف من منظور مالك بن نبي إلى تكوين شبكة العلاقات الاجتماعية التي هدفها في الأخير الحركية والتّغيير والنّماء.

3.2. **العلم:**

يربط مالك بن نبي العلم(المعرفة) بالثقافة عامة وبالمبدأ الأخلاقي خاصة. ويعرّفه بما يلي: **"إنّ كلّ علم هو في جوهره الجهد الذي يبذله الإنسان من أجل اكتشاف ما يجهل"** (مالك بن نبي،**1981**. ص.**167**) وما يقصده منه هو العلوم الشرعية والعلوم الموضوعية، فالعلم الموضوعي على حدّ تعبيره: **"إنّ العلم غير شخصي(موضوعي)، بمعنى أنّ رجل العلم دائما إنسانا يراقب الأشياء، ليسيطر عليها، وليحسّها، تلك هي نظرة المنهجية(الدّيكارتية) لعالم الظواهر"**. (مالك بن نبي، **1998**، ص.**77**)

ويبحث أيضا في العلوم الطبيعية والتّقتية والعلوم السلوكية(علم الاجتماع وعلم النفس، وعلم التربية)، لما لها من دور في تقدّم المجتمعات وتطوّرها، وما تقوم به من دراسات المجتمعات والجماعات لتقدّم للإنسانية الحلول للمشكلات المطروحة.

إنّ العلم الذي يهدف مالك بن نبي وينوّه بقيمته الاجتماعية والتّغييرية هو العلم الذي يرتبط بالأخلاق وبالتربية وبالعمل، ذلك أنّ تجسيد المنطق العملي في حياتنا السلوكية هي قضية تربية.

إذن، إنّ ثلاثية الإنسان والمجتمع والعلم تشكّل نظرة مالك بن نبي الفلسفية للفكر التربوي، وهو الفكر الذي يحمل في جوهره قيما تربوية وعلمية ومجتمعية.

3. مفهوم التّربية وأهدافها:

1.3. مفهوم التّربية:

يتحدّد مفهوم التربية في تصوّر مالك بن نبي من خلال الحديث عن ماهيتها وأهدافها وارتباطها بقضايا فكرية مختلفة أهمّها: الحضارة، التغيير بنوعيه:

النفسي والاجتماعي، الثقافة والحضارة. فإذا كانت الحضارة ترتبط بمفهوم التربية، والتي تعدّ مسألة في غاية الأهمّية في التجديد والبناء الحضاريين، إلّا أنه لم يقتصر في تحديدها على جانبها المدرسي الأكاديمي، بل هي وسيلة ومنهج منظّم للتثقيف والتغيير والتجديد الحضاري، فهي عملية إنسانية متكاملة تمسّ كافة مناحي الحياة.

لذلك نراه يتصوّر التربية مفهوما شاملا يتعدّى نقل المعرفة من المعلّم إلى التلميذ، إلى أهداف متكاملة لتشمل أهدافا فكرية وخلقية واقتصادية وسياسية، حيث أصبحت تستهدف تنمية التّفكير الإنساني ليكتسب النشئ مهارات التفكير الجيّد في نواحي الحياة المختلفة، بدءا من تكوين الصّلات الاجتماعية داخل المجتمع الواحد إلى المشاركة السياسية في إطار الدّيمقراطية، إلى بناء اقتصاد قويّ والانضمام إلى التّكتلات الدّولية والإقليمية.

إنّ التربية عند بن نبي ليست مجموعة من القواعد والمفاهيم النّظرية التي لا سلطان لها على أرض الواقع، على عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء. ليست هي من إنتاج المتعلّمين في بحار العلوم الذين يعرفون جميع كلمات المعاجم دون أن يلمّوا بما تترجم عنه هذه الكلمات من وقائع، خيرا كانت أم شرا، بل هي وسيلة فعّالة لتغيير الإنسان، وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكوّن معهم مجموعة القوى التي تغيّر شرائط الوجود نحو الأحسن دائما، وكيف يكوّن معهم شبكة العلاقات الاجتماعية حتى تتيح للمجتمع أن يؤدّي نشاطه المشترك في التاريخ.

لم يتطرّق مالك بن نبي إلى مفهوم التربية بشكله المعرفي/الإيبستيمولوجي، فهو لم يتحدّث عن التربية في مؤلّفاته بشكل صريح ومباشر، إذ يتداخل معنى التربية عنده مع مفهوم الثقافة. ويظهر لنا هذا التداخل في قوله: **"من أوّليات**

واجبنا أن تعود الثقافة عندنا إلى مستواها الحقيقي، ولذلك يجب أن نجدّدها عاملا تاريخيا لكي نفهمها، ثم نظاما تربويا تطبيقيا لنشرها بين طبقات المجتمع" (مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، **2000**. ص.**75**) فهو يرى أنّها **عملية تثقيف متواصلة**، وتتمثّل هذه العملية التثقيفية في تلك العملية النفسية التي تقوم في أولى مهامها بتركيب عناصر ثقافة المجتمع في بنية شخصية الفرد أي في بنية إنسان ما بعد الموحّدين.

إنّ التربية هي عملية تركيب لعناصر الثقافة في نفسية إنسان ما بعد الموحّدين، وهي في الوقت نفسه"عملية تثقيف متواصلة". وبهذا يكون هذا المفهوم(التربية) منطويا في حدّ ذاته على فكرة المنهج الذي يوضّح الكيفية التي يجب أن تتمّ بها العملية التركيبية، وذلك بمراعاة أولويات الترتيب لعناصر الثقافة وفق سلّم القيم التي يؤمن بها المجتمع، مع مراعاة المرحلة التاريخية التي يمرّ بها هذا المجتمع وما تطرحه من متطلّبات، وذلك لكي يتسنّى تحديد الاستجابات المناسبة لها. يسمّي بن نبي هذا المشروع الحضاري الثقافي ب"الثقافة المربّية". إنّها **عملية تعليم وتعلّم** لأنماط متوقّعة من السلوك الإنساني، بمعنى أنّ مفهوم التربية يتعلّق بتعليم الأفراد من الجيل الجديد كيف يكون في المواقف الاجتماعية المختلفة على أساس ما يتوقّعه منهم المجتمع الذي ينشئون فيه، أي **أنّ التربية كعملية تهتمّ بالسلوك الإنساني وتنميته وتطويره وتغييره.**

هذا، وينظر مالك بن نبي إلى **التّربية كمشكلة** تمسّ الإنسان وكيفية نقله من إنسان ما قبل الموحّدين إلى مابعد الموحّدين، إنّ خروج الإنسان من دورته الحضارية ودخوله في نفسية إنسان ما بعد الموحّدين، جعلت أمر العملية التربوية معقّدا ومركّبا، إذ يتطلّب عملية تصفيته من الموروثات والتّراكمات التي جعلت منه يسقط في براثن التخلف والقابلية للاستعمار، دون تجديد لكيان الإنسان طبقا لتعاليم الإسلام الحقّة، ومناهج العلم الحديث. وللدخول في النهضة مجدّدا

يكون: **"بإعادة صياغة الإنسان، انطلاقا من حلّ مشاكله، وإدخاله من جديد في أصل شبكة العلاقات الاجتماعية، التي تتيح لمجتمع معيّن أن تؤدّي عمله المشترك في التاريخ"**. (مالك بن نبي،ميلاد مجتمع، **2000**، ص.**30**)

وفي هذا يشترط بن نبي إدراك عناصر الثقافة من أخلاق وجمال ومنطق عملي وصناعة، ويتساءل عن**"كيف ينبغي أن ندركها في صورة برنامج تربوي يصلح لتغيير الإنسان الذي لم يتحضّر بعد، في ظروف نفسية زمنية معيّنة، أو لإبقاء الإنسان المتحضّر في مستوى وظيفته الاجتماعية، في مستوى أهدافه الإنسانية"**. (مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص.**100**)

هذا، ويقترح بن نبي مجموعة من المفاهيم والمصطلحات ذات العلاقة الترابطية مع التربية، مثل الثقافة والحضارة، ففي هذا يقول حول إقامة برنامج تربوي يرتبط بعناصر الثقافة: **" ينبغي أن نفكّر في الإنسان الذي لم يتحضّر بعد، أو الذي خرج من دورة حضارية في أزمة تاريخية معيّنة، وأن نحدّد شروط الفاعلية التي يمكن أن تقوم على منهج للأخلاق والجمال"**. (مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، **2000**، ص.**101**)

ونحن ننظر إلى هذه المفاهيم(الثقافة، الفاعلية، الإنسان) نلاحظ علاقة تكوينية وترابطية تجمع بينهم كي تؤدّي وظيفتها في التاريخ، أي تشكيل حضارة. إنّ التربية كمبدأ أخلاقي تحدّد شروط بقاء الحضارة واستمرارها، والثقافة بما تحويه من تركيب متآلف(الأخلاق والجمال والمنطق العملي والصناعة، والحضارة) هي وعاء للتربية.

كما يربط مالك بن نبي بين التربية والتّنشئة الاجتماعية، والتي تعني إكساب الفرد أدوارا اجتماعية لكي يشغل مكانه في المجتمع الذي يعيش فيه، وهي تمثّل جسرا موصلا بالمجتمع العام وبالثقافة الاجتماعية، فعن تكييف الفرد مع المجتمع

يقول: **" ينبغي إجمالا أن نحدّد العلاقة التي يحتمل أن تكون بين مجموعة من الأفعال المنعكسة المنظّمة لسلوك الفرد، وبين شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لمجتمع ما أن يؤدّي نشاطه المشترك".** (مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، 2000، ص.ص. 65، 66)

وينظر للتربية باعتبارها ظاهرة إنسانية، لما للدين(باعتباره ظاهرة إنسانية) من دور في تنشئة الفرد ذاتيا واجتماعيا. إلى جانب التربية كعملية تطبيع اجتماعي، كعملية اكتساب خبرات، وكعملية تحضّر. وبهذا فهو يربط التربية بالتحضّر الاجتماعي كسلوك اجتماعي وكمنهج قابل للتّطبيق، فالتربية ليست مجموعة من القواعد والمفاهيم النظرية التي لا سلطان لها على عالم الواقع، على عالم الأشخاص وعالم الأفكار وعالم الأشياء، بل إنّها: **"وسيلة فعّالة لتغيير الإنسان، وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه وكيف يكوّن معهم مجموعة القوى التي تعتبر شرائط الوجود نحو الآخر دائما، وكيف يكوّن معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدّي نشاطه المشترك في التاريخ".** (مالك بن نبي، القضايا الكبرى، 1991، ص.110)

ويربط بن نبي التربية كذلك بالإدماج الاجتماعي. وفي هذا يقول: **"إنّ إدماج الفرد في شبكة اجتماعية عملية تنحية، وفي الوقت ذاته عملية انتقاء، وتتمّ هذه العملية المزدوجة في الظروف العادية، أي في حالة المجتمع المنظّم، بواسطة المدرسة، وذلك ما يسمّى تربية"** (مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، 2000، ص.67). وترتبط التربية عنده أيضا بالمفهوم العملي للثقافة الذي يؤكّد على أنّها: **" مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقّاها الفرد منذ ولادته، بوصفها رأس مال أوّلي في الوسط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه الشخصية".** (مالك بن نبي، شروط النهضة، 2000، ص.89)

2.3.أهداف التّربية:

إنّ التغيير الذي ينشده مالك بن نبي على المستويين: الذاتي والاجتماعي بواسطة التربية يهدف من ورائه إلى تحقيق أهداف عامة وأخرى خاصة يمكن إيجازها فيما يلي:-

1.2.3.هداف التّربية العامة:

وتتمثّل في إعادة تشييد البناء الحضاري المنهار(أي: تربية الثقافة)، وتكريس آليات حركته عبر الأجيال اللّاحقة، والارتقاء به إلى مستوى آمال وتطلّعات الإنسانية(تثقيف التربية)، وهذا عن طريق إعادة تشكيل الإنسان المستقبلي، الرّسالي، روحيا وسلوكيا وعقليا وعمليا. فهو يهدف من التغيير بوسيلة التربية إلى تقديم **"بديل ثقافي واجتماعي لما هو موجود، هذا البديل يتمثّل في خلق واقع اجتماعي لم يوجد بعد"** (مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، 2000، ص. 38). أي مجتمع تتجسّد فيه مميّزات التحضّر، ويجد كلّ فرد فيه الضمانات الضرورية، المادّية والمعنوية لنموّه في كلّ طور من أطوار حياته، هذه الضمانات التي تمكّن كلّ الفعّاليات في المجتمع من التعبير عن قدراتها وإراداتها. إنّ الهدف العام من التربية هو إحداث التغيير الذي ينتهي بإقامة حضارة وبدورها الرّسالي والعالمي، أي نشر قيم إنسانية: إخاء، عدل، مساواة، تعايش، تعاون... .

2.2.3.أهداف التّربية الجزئية:

إنّه لتحقيق الغاية القصوى من التربية، تتجمّع جملة من الأهداف الجزئية فتصوّب نحو الوعي لتنبيهه والإرادة لشحذها والضمير لإيقاظه والعقل لإعماله، والعضلات لتحريكها، وذلك لخلق شروط الفعّالية لدى إنسان ما بعد الموحّدين، فهي الشروط التي تمكّنه من التخلّص من مورّثات الماضي السّلبة ورواسبه،

وفي الوقت نفسه تمكّنه من إيجاد ظروف مادّية ومعنوية جديدة تصله بعجلة التاريخ وبحركته الصّاعدة.

وللتوضيح أكثر في هذه الأهداف، ارتأينا من الضروري ربط صلة التربية بالتغيير(أهداف خاصة) وبالحضارة (أهداف عامة) كما تصوّرها بن نبي، **فما طبيعة علاقة التربية بالتغيير؟**

4.التّربية والتغيير:

إنّ الحديث عن علاقة التربية بالتغيير هو في حقيقته حديث عن علاقة التربية بالحضارة، مادام التغيير المستهدف هو الذي ينتهي بإقامة حضارة(أي التغيير الحضاري). ولمّا كان التغيير الذي يقصده بن نبي هو تغيير الفرد والمجتمع معا، فهو المطلب من مشروعه الحضاري، إذ لا يمكن تصوّر ذلك بمعزل عن التربية، حيث جعل الإنسان مادّته الأساسية التي وجّه إليها كلّ جهوده في التغيير، باعتبار أنّ الإنسان هو المنشئ للحضارة، وهذه المادة التي يتمحور حولها التغيير هي الأصل الذي يقوم عليه موضوع التربية، بحيث لا وجود للتربية من دون الإنسان.

وإلى جانب اشتراك كلّ من التغيير والتربية في الموضوع -الإنسان-، فهما يشتركان أيضا في الهدف وهو تربية الإنسان وتحقيق التغيير، أي تربية الإنسان بما يحقّق له التغيير الذي يشترط إرادة الإنسان في التغيير. والهدف من ذلك هو إقامة دعائم سلوكية وتقاليد ثقافية مجتمعية جديدة، وهو ما يعرف بتربية الثقافة. ومن هنا فالعلاقة التي تجمع التربية بالتغيير هي علاقة تلازم وتداخل وتكامل.

إنّ التربية تتّخذ من التغيير موضوعا وهدفا لها، ويتّخذ التغيير من التربية وسيلة ومنهاجا، فالتغيير كموضوع وكهدف للتربية يكون من خلال تركيزها على الإنسان كمادّة للتغيير، واهتمامه بمختلف أبعاده: النفسية والأخلاقية

والاجتماعية والجمالية، والعقلية والعلمية والعملية، وممارسة التأثير(الفعل) عليها بما يحقّق التغيير الذي هو هدف التربية المنشود.

وتبرز التربية كوسيلة وكمنهاج للتغيير من خلال الممارسة التربوية التي تتطلّب انتقاء الأهداف وترتيبها، واختيار الوسائل الأكثر نجاعة وانتهاج أفضل الطرق لإحداث الأثر(التغيير) المرتقب، وهذا في إطار الإستغلال الأمثل المتوفّر من الإمكانيات وفق المرحلة التاريخية التي يمرّ بها المجتمع.

وبما أنّ التغيير يرتبط بالثقافة، فالتربية ترتبط بالوسط الثقافي الاجتماعي في سيرورته التاريخية وعبر جميع مراحل مشروع إعادة البناء الحضاري، وهو ما تؤكّده المقولة التالية: **"المدرسة لا تحلّ وحدها مشكلة الثقافة لأنّ حلّها يبدو متأتيا عن شروط أكثر عموما"**. (مالك بن نبي، القضايا الكبرى، 1991، ص. 74)

وبما أنّ التربية هي وسيلة تحقيق التغيير للإنسان ذاتيا واجتماعيا، كان من الضروري الوقوف على مظاهر هذا التغيير بالمنهج التربوي كما تصوّره بن نبي. فعلى المستوى الذاتي، تحقّق التربية أهدافا روحية ودينية للفرد، وهي جملة من الصفات والمتغيّرات التي يجب تنميتها من أجل بناء كيان إنساني قادر على الانخراط في منظومة أخلاقية واجتماعية تهدف إلى إخراج الفرد من صفاته الوراثية إلى شخص مكيّف منوط بعملية التحضّر تبعده عن عوالم القابلية للاستعمار. من هذه المتغيّرات كما يذكر بن نبي: **النمو الكامل للفرد**، حيث تهدف التربية إلى تكوين الإنسان الكامل الذي تجسّدت فيه قيم الحضارة، أو إنسان الحضارة من خلال التغيير الإرادي النفسي. وفي هذا يقول بن نبي: **"إنّ تغيير ما**

بنفس الفرد هو الشرط الجوهري لكلّ تحوّل اجتماعي" (مالك بن نبي، شروط النهضة، 2000، ص.33). **وتكوين الإنسان الصّالح**، وهنا نجد مالك بن نبي يربط المواطنة والثقافة والحضارة، أي أنّه يهدف من التربية إلى تكوين الإنسان الصالح، وهو ما تؤكّده مقولته: **"... علينا ترسيخ فكرة أنّ المواطنة لا تعني فقط الأخذ من الدولة ولكنها تعني كذلك العطاء للمجتمع. وتتحوّل الثقافة داخل المجتمع إلى سلوك اجتماعي يدافع عنه الأفراد، فالثقافة بما تتضمّنه من فكرة دينية، نظّمت الملحمة الإنسانية في جميع أدوارها من لدن آدم، لا يسوغ أن نعدّ علما يتعلّمه الإنسان، بل هي محيط يحيط به، وإطار يتحرّك داخله، يغذّي الحضارة في أجزائه، فهي الوسط الذي تتكوّن فيه جميع خصائص المجتمع المتحضّر، وتتشكّل فيه كلّ جزئية من جزئياته، تبعا للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه، بما في ذلك الحدّاد والفنان والراعي والعالم والإمام، وهكذا يتركّب التاريخ"**. (مالك بن نبي، شروط النهضة، 2000، ص.92)

إلى جانب **تصفية التراث من الرّواسب**(أي تصفية الأفكار الميّتة من تراثنا)، **غرس الرّوح الإسلامية، تربية الإرادة** (أي تربية الفرد على إرادة التنمية التي تبدأ من تغيير النفس)، **مساعدة الفرد على التكيّف الاجتماعي، تنمية الشعور بالذات** بأن يعرف الإنسان خصوصيته الثقافية وبعده الحضاري وطبيعة الصراع بين الأمم وما هي وسائله وأهدافه لمعرفة طرق الخروج من التخلف.

هذا من الناحية النفسية-الاجتماعية، أما من الناحية الأخلاقية، فإنّ التربية تعمل على **تكوين الذّوق العام، تقديم الواجب على الحق**، ففي هذا يرى بن نبي أنّ **"تغيير وجهة الناس من المطالبة بالحقوق إلى تأدية الواجبات عملية مضنية لأنها تتعلّق بالتربية التي تتطلّب وقتا للتنشئة، عاملا يتّخذ من الزمن بعدا تربويا"** (مالك بن نبي، 1987، ص.89). يرى بن نبي أنّ تحقيق هذا الهدف التربوي أمر

مطلوب في إطار التغيير الاجتماعي، ذلك أنّ تقديم الواجب على الحق مؤشر يدلّ على أنّ المجتمع يتّجه نحو البناء والتقدّم، إذ أنّ **"المجتمع الذي يرتفع وينمو فإنّ ذلك يعني أنّ لديه رصيدا من الواجبات فائضا على الحقوق"** (مالك بن نبي، **1987**، ص.**31**) . ويتضمّن الواجب حسب بن نبي فكرتي المسؤولية الجماعية والتّكليف الفردي، لذلك يشدّد على قيمة الواجب لتعلو على قيمة الحقوق، وذلك من خلال تنمية الشعور بالمسؤولية.

وتعمل التربية كذلك على **تخليص الفرد من ذهان السهولة والإستحالة**. وهنا يرى مالك بن نبي ضرورة تصفية الثقافة في المجتمع الإسلامي من هذين المرضين، وعلى التربية أن تعمل على تخلّص الإنسان المسلم من مرض اعترى ثقافته، فأصاب حركته بالشّلل، وتتمثّل في الأحكام المسبقة التي يطلقها على الأعمال المطالب بإنجازها، والتي يراها إمّا مستحيلة تفوق الوسائل التي يمتلكها، أو أنّها سهلة لا تتطلّب جهدا يبذل. (مالك بن نبي، **1986**، وجهة العالم الإسلامي، ص.**88**)

وفي هذا السياق النفسي والاجتماعي يمكننا أن نشير إلى بعض الأبعاد التربوية – التغييرية- للتربية عند بن نبي في النقاط الآتية:-

1.4.-غرس المبدأ الاجتماعي الأخلاقي وتكوين الصّلات الاجتماعية:

إنّه لا بدّ من إعادة تشكيل عالم الأشخاص الذي تمزّقت فيه الصلات الاجتماعية والشبكة الاجتماعية، لأنّه تمثّل القاعدة التي ينطلق منها كلّ عمل تاريخي مشترك، ذلك أنّ عالم الأشخاص تعبّر عنه شبكة العلاقات الاجتماعية في وسط اجتماعي. ويركّز هنا بن نبي على تكييف الإنسان المسلم اجتماعيا بطريقة تجعل من كلّ تصرّفاته وانعكاساته تتوافق مع الشبكة الاجتماعية ولا تتعارض معها. وذلك عن طريق إحياء سلطة الضمير لدى الإنسان التي يعكسها الالتزام والسلوكات المسؤولة، وإيصالها بالمثل العليا لتوجيه عمله نحو غايات سامية تعلو

على درجة النوع فترتبط برسالة اجتماعية تليق بمكانته كإنسان، إذ أنّها تساهم في تقدّم النوع الإنساني. (مالك بن نبي، 2002، ص. 70)

2.4.-غرس المبدأ الجمالي وتكوين الذّوق العام للمجتمع:

إنّ الإحساس بالجمال **"هو ذوق رفيع يميّز أكثر الإنسان المتحضّر، وهذا الإحساس تذكّيه في النفس الصفات التي يظهر عليها الشيء من انسجام في الألوان وتجانس في الأشكال، وانتظام في الحركات، وطيّب في الرّوائح، واتّزان في الأصوات، وتنسيق في الأفكار"** (محمد بغداد باي، 2006، ص.158). لذلك يرى بن نبي ضرورة الاهتمام بتكوين الذّوق العام كشرط موضوعي من شروط التغيير المتضمّنة في برنامجه التربوي للثقافة، نظرا لما له من تأثير واضح في النفس وفي المجتمع وفي مظاهر الحياة العامة.

3.4-تكوين المنطق العملي وبثّ الفاعلية الاجتماعية:

يرى بن نبي أنّ تحقيق هذا الهدف التربوي من أجل تطبيع الإنسان المسلم على الفعّالية، فما ينقص الإنسان المسلم اليوم هو أنّ أفكاره لا تتحوّل إلى إنجازات وإلى واقع ملموس، وذلك لغياب الإرادة والتركيز(الانتباه) اللذان يعدّان من صميم العمل التطبيقي (محمد بغداد باي، التربية والحضارة،، 2006، ص.158). لهذا يلحّ بن نبي على ضرورة إيجاد أفكار علمية عملية يواجه بها كلّ جيل ظروفه التاريخية الخاصة.

4.4. الإعداد والتّكوين الفني والمهني والصّناعي:

إنّ الاهتمام بالتّكوين الفني والمهني هو شرط ضروري لتحسين الجوانب المادّية التي تلعب دورا مهمّا بالنسبة لحياة الإنسان والمجتمع معا، فإذا كانت تمثّل

بالنسبة للفرد وسيلة لكسب عيشه وربّما لبناء مجتمعه بالنسبة للمجتمع تمثّل وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموّه. (مالك بن نبي، شروط النهضة، 2000 ص. 104)

5.4. تنمية الوعي:

يؤكّد مالك بن نبي على ضرورة تنمية الوعي لدى الإنسان المسلم اليوم، بمعنى تنمية شعوره بالذات وبوضعيتها وبمصيرها التاريخي، واستشعار واقعها الاجتماعي المتخلّف وتبعيتها للآخر، وفي الوقت نفسه إدراك خصوصياتها وانتمائها الحضاري، مع معرفة إمكانياتها وقدراتها المادّية والمعنوية المتاحة في إطار طبيعة الصراع الحضاري التاريخي.

6.4. توجيه العمل:

يعدّ هدفا تربويا ذو أهمّية كبيرة عنده، ذلك أنّ **"العمل وحده هو الذي يخطّ مصير الأشياء في الإطار الاجتماعي"** (مالك بن نبي، شروط النهضة، 2000، ص. 114)، فهو نشاط يتولّد عن تفاعل الإنسان مع الزمن والتراب.

7.4. توجيه رأس المال:

يرى بن نبي أنّه في المجتمع الإسلامي المتخلّف لن **" تكون هناك حركة تغيير أو نهضة، ما لم يتمّ تحويل مفهوم المال من دائرة الثروة الكادسة الضّيقة، إلى مفهوم رأس المال المتحرّك الأوسع مجالا، والأهمّ فائدة، وذلك من خلال عملية التوجيه التي تقوم على التخطيط لتفادي تمركز رؤوس الأموال في أيدي فئة قليلة على حساب فئات المجتمع العريضة".** (مالك بن نبي، شروط النهضة، 2000، ص. 122)

8.4. بثّ القيمة الاجتماعية للوقت وللتّراب:

يعتبر الزمن والتراب من العوامل الأساسية اللّازمة لإنضاج عملية التغيير الاجتماعي لدى بن نبي، وهذه الفعّالية هي مستمدّة من فعّالية الإنسان في المجتمع، ومدى ما يحمله من قيمة لهذين العاملين. لذلك، يرى بن نبي ضرورة إعادة الاعتبار لهذين العاملين، وذلك عن طريق التربية التي تهدف إلى إشعار الفرد والمجتمع معا بقيمتهما الاجتماعية والنفسية المتمثّلتين في بيان أهميّة إصلاح التراب والتخطيط له، فقيمة التراب تظهر من التوجّه الاجتماعي من قيمة مالكيه وكمّية ونوعية إنتاجه. فعلى التربية أن تبيّن القيمة الاجتماعية للتراب. بالإضافة إلى إبراز: **"مفهوم الزمن الداخل في تكوين الفكرة والنشاط وفي تكوين المعاني والأشياء، بكونه عامل تأثير في الإنتاج".** (مالك بن نبي، شروط النهضة، 2000، ص. 146)

5: التّربية والثقافة.

إنّ الثقافة التي تعمل التربية في حدود إطارها، تختلف من مجتمع إلى مجتمع. وهذا الاختلاف نراه بين أفراد المجتمعات المختلفة. وتدلّ البحوث التربوية والأنثروبولوجية على أنّ طابع الشخصية له علاقة وثيقة بنمط الثقافة الذي تخضع له هذه الشخصية، وإنّ هذه الأخيرة هي مرآة تعكس بصدق صورة الثقافة، فما هي إلّا نموذج مصغّر للثقافة التي نشأت فيها. وفي هذا الإطار، يمكننا القول إنّ الثقافة تؤثّر في بناء الشخصية من حيث الأفكار والقيم والمعارف والمهارات والخبرات والدّوافع وطرق التّعبير على الانفعالات والرّغبات وأنماط السلوك المختلفة. كما تؤثّر أيضا في النواحي الجسمية والعقلية والمزاجية والخلقية للفرد.

ومن هذا المنطلق، يرى مالك ابن نبي أنّ كلّ ثقافة هي بالضرورة تركيب وتأليف لعالم الأشخاص. وهذا التأليف يحدث طبقا لمنهج تربوي، يأخذ صورة فلسفية- أخلاقية. وبناء على ذلك تكون الأخلاق والفلسفة الأخلاقية هي أوّل المقوّمات في الخطة التّربوية.

ومعنى هذا أن كل تربية تقوم على أساس فلسفة معيّنة بما تحتويه هذه الفلسفة من معرفة وقيم وأخلاق وطبيعة بشرية. ويتّضح كلّ هذا بصفة خاصة في ميدان فلسفة التربية وفي قيامها بوظيفتها. فالعملية التربوية يمكن أن توضّح العلاقات الأساسية التي تربط العلم بالحياة. يقول بن نبي في هذا المجال، أن الثقافة التي لا تدخل في عناصرها عقد الصلة بين العلم و الأخلاق، هي ثقافة تعاني من خلل جوهري، ينعكس تربويا على نحو غير إيجابي اجتماعيا وإنسانيا. فالعالم الذي يفقد في نشاطه المبرّر الأخلاقي، قد يضعف لديه الحافز نحو تحقيق المعطيات العلمية لعمله.

وإذا كانت التربية هي إعداد المواطن الذي يستطيع التكيّف مع المجتمع الذي نشأ فيه كما أوضحنا من قبل، فإنّها تعمل أيضا على تشكيل الشخصية الإنسانية تشكيلا يقوم على أساس ما يسود المجتمع من تنظيمات سياسية واجتماعية واقتصادية. ولهذا كان لابدّ للإطار الثقافي الذي يقوم عليه المجتمع أن يحدّد أبعاد العملية التربوية واتّجاهاتها بحيث لا تخرج التربية عن هذا الإطار، إلّا تطويرا له وتقدّما به.

ويرى ابن نبي أنّ القيم الأخلاقية في بعدها الاجتماعي، تلعب دورا هاما في قيام المجتمعات وتطويرها. وإن بناء شخصية الفرد لا يتحقّق دون أساس أخلاقي. وإنّ فعّالية المجتمعات تزيد أو تنقص بمقدار ما يزيد فيها تأثير الأخلاق

أو ينقص، لأنّ الأخلاق شرط أساسي في تنظيم العلاقات الاجتماعية، بما يلائم المصلحة العامة. (مالك بن نبي، 1988، ص.44)

وعلى هذا الأساس، تحتلّ القيم الثقافية والأخلاقية مركزا أساسيا في توجيه العملية التربوية. وفي هذا المجال تعمل التربية على المحافظة على التراث الثقافي ونقله من جيل إلى جيل، بما في ذلك القيم الأخلاقية، والعمل على تطوير هذا الواقع الثقافي بمقدار ما تستطيع نحو ما يجب أن يكون.

وفي هذا المقام يرى ابن نبي أنه من المهمّ أن يتّضح، بأنّ الثقافة ما هي إلّا محيط معيّن يتحرّك في حدوده الإنسان. إنّها جو من الألوان والعادات والتقاليد والأشكال والأوزان والحركات التي تطبع حياة الإنسان باتّجاه معيّن وأسلوب خاص، يقوي تصوّره ويلهم عبقريته، ويغذي طاقته الأخلاقية. (مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، 1986، ص.100)

إنّ التربية عند بن نبي هي وسيلة لنقل كلّ العناصر والنماذج الثقافية في المجتمع، لذلك يتصوّر أنّ الثقافة هي **نظام تربوي** يحدّد أسلوب حضارة ويمنحها القدرة على الإبداع والاستمرارية، وتتمثّل الثقافة من حيث إنّها نظام تربوي في المبادئ الأربعة: المبدأ الأخلاقي والجمالي والمنطق العملي والعلم أو الصناعة. يؤكّد على ذلك بقوله: **"فلو أنّنا حلّلنا واقعا اجتماعيا وأعني نشاطا اجتماعيا مجسّدا سنجد فيه على الفور وفي حالته الراهنة أو في إطّراد تطوّره أربعة عناصر أساسية يمكن أن نطلق عليها المنهج الأخلاقي والذوق الجمالي والصّناعة والمنطق العملي، فكلّ واقع اجتماعي وكلّ ناتج حضارة هو في جوهره مركّب من هذه العناصر الأربعة"** (مالك بن نبي، تأملات، 1991، ص.26). **فماذا يقصد**

بن نبي بهذه المبادئ، وكيف تسهم من حيث كونها نظاما تربويا في عملية التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري؟

1.5-المبدأ الأخلاقي:

تقوم نظرية بن نبي في تحديدها لمفهوم الأخلاق على المرجعية الدّينية الإسلامية، فهي مستمدّة من القرآن والسنة النبوية، يقول في ذلك: **"هذه الروح الخلقية منحة من السماء إل الأرض تأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات ومهمّتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض**"(مالك بن نبي، شروط النهضة،1987، ص.94). ويقوم المبدأ الأخلاقي ببناء شبكة العلاقات الاجتماعية، أي تشكيل عالم الأشخاص، لذلك يركّز بن نبي على البعد الاجتماعي الأخلاقي، فاهتمّ بالوظيفة الاجتماعية لسلوك الفرد واسهاماته الفاعلة في عملية البناء الحضاري.

ويمثّل المبدأ الأخلاقي الأساس الذي يقوم ببناء عالم الأشخاص، ويجعل من الإنسان كائنا اجتماعيا يحمل قيما وينشد أهدافا، وهو الذي يحدّد للثقافة خصوصياتها. والمقولة التالية تؤكّد لنا ذلك: " **والحقيقة الأولى التي تتبادر إلى أذهاننا أنّ الثقافة لا تستطيع أن تكون أسلوب الحياة في مجتمع إلّا إذا شملت على عنصر يجعل كلّ فرد مرتبطا بهذا الأسلوب، فلا يحدث فيه نشوزا بسلوكه الخاص. نحن إذا دقّقنا في هذا العنصر فإنّنا نرى أنّه لابدّ أن يكون خلقيا، فإذا قرّرنا وجود هذا العنصر بوصفه ضرورة منطقية اجتماعية فإنّنا نكوّن هنا فصلا من فصول الثقافة وحقّقنا شرطا أساسيا من شروطها وهو المبدأ الأخلاقي".** (مالك بن نبي، تأمّلات، **1991**، ص.**148**)

2.5-المبدأ الجمالي:

يعرّف بن نبي هذا المبدأ بأنّه كلّ ما يتذوّقه الإنسان في حياته اليومية من مختلف أشكال التعبير الفني من موسيقى ومسرح ورسم، وما يرتديه الفرد من ألبسة وما يمارسه من عادات وتقاليد. ويشمل أيضا طرق بناء البيوت وأساليب مسح الأحذية ونظافة البدن وتزيين المحيط(مالك بن نبي، شروط النهضة، **1987**، ص. **101**). ولكنّه يركّز على وظيفته الاجتماعية والحضارية والتربوية.

لذلك، تقوم نظرة بن نبي للجمال على تحديد أبعاده ووظائفه النّفسية والاجتماعية والحضارية، فالجمال يعتبرا عنصرا مهمّا من عناصر التغيير الاجتماعي ووسيلة من وسائل عملية البناء الحضاري وهو الذي يجعل ثقافة متميزة من الثقافات الأخرى، وهو العنصر الذي يصوغ صورة المبدأ الأخلاقي، أي أنّ المبدأ الأخلاقي لا يؤدّي وظيفته في البناء الثقافي والاجتماعي والحضاري إلّا بتوفّر عنصر الجمال الذي يعدّ جزءا مهمّا من العملية التربوية التي تهدف إلى اكتساب الإنسان القيم الفنّية والجمالية. هكذا يقرّ بن نبي بوجود علاقة تفاعلية بين الأخلاق والجمال، حيث أنّ كلّ أشكال التعبير الفنّي تؤدّي وظائف اجتماعية وغايات تربوية ونفسية تتمثّل في الحفاظ على الشخصية القاعدية للفرد والبنية الثقافية والاجتماعية للمجتمع، والإسهام في عملية البناء الحضاري. يقول في ذلك: "**الأساس الثاني الذي تقوم عليه الثقافة هو ذوق الجمال الذي يطبع الصّلات الاجتماعية بطابع خاص، فهو يضفي على الأشياء الصورة التي تتّفق مع الحساسية والذوق العام ألوانا وأشكالا. فإذا كان المبدأ الأخلاقي يقرّر الاتّجاه العام بتحديد الدوافع والغايات فإنّ ذوق الجمال هو الذي يصوغ صورته**". (مالك بن نبي، شروط النهضة، **1987**، ص.**101**)

3.5-المنطق العملي:

ويعرّفه مالك بن نبي بأنّه: " **كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه، وذلك حتى نستسهل أو نستصعب شيئا بغير مقياس يستمدّ معاييره من واقع الوسط الاجتماعي وما يشتمل عليه من إمكانيات. إنّه ليس من الصّعب على الفرد المسلم أن يصوغ مقياسا نظريا يستنتج به نتائج من مقدّمات محدّدة غير أنّه من النادر جدّا أن يعرف المنطق العملي، أي استخراج أقصى ما يمكن من الفوائد من وسائل معيّنة**" (مالك بن نبي ،**1987**، شروط النهضة، ص.**101**)

لاحظ بن نبي أنّ الإنسان المسلم لا يجسّد الفكرة في الواقع الاجتماعي، وأنّ سلوكه يتّسم بالجمود وبالكسل والفتور وتضييع الوقت، فتحوّلت هذه السلوكات إلى ظواهر اجتماعية مرضية لأنّها تفتقد لعنصر العمل وغاياته، إذ يقول في ذلك: "**إنّ المجتمع الإسلامي يعيش طبقا لمبادئ القرآن، ومع ذلك فمن الصواب أن نقول: إنّه يتكلّم تبعا لمبادئ القرآن، لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه الإسلامي**" (مالك بن نبي، **1987**، ص.**104**) . فما لاحظه بن نبي أنّ سلوك الإنسان الجزائري يتميّز بالشلل والعقم والجمود مقارنة بالإنسان الغربي الذي يتميز بالفعّالية والإبداع.

4.5-العلم والصّناعة:

يظهر لمالك بن نبي أنّ العلم والمعرفة والعمل هي من أهمّ الشروط التي يتطلّب الاعتماد عليها لتحقيق نهضة العالم الإسلامي والخروج من التخلف، وما يقصده بالعلم والصناعة: "**كلّ الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم**". (مالك بن نبي، شروط النهضة، **1987**، ص– ص.**125**، **126**) ويحثّ على تربية الأفراد وتوجيههم توجيها فنّيا وتعليمهم حرفا ومهنا مختلفة.

وعليه، فإنّ وظيفة التربية هي التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري، وهذا ما سنوضّحه غي العنصر الموالي:-

5. التّربية عند بن نبي وتحدّيات المرحلة.

نحاول أن نبيّن هنا فكرة الحوار الحضاري مع الشعوب وما تتضمّنه من تعايش ثقافي بين الثقافات والحضارات وخصوصا كما صاغها بن نبي بين الشعوب الإفريقية والآسيوية تحديدا، لنبرز دور التربية في تحقيق هذا الحوار الحضاري والتعايش الثقافي كما صاغه في عصره، مع محاولة تفعيله في المرحلة التاريخية المعاصرة لشعوب المنطقة العربية في تفاعلها مع الآخر.

إنّ التواصل الحضاري هو بالدرجة الأولى تربية ثقافية تنطلق من بناء الهويّة الحضارية للفرد وتشبّعه بها، فهو يرتبط بفكرة التربية ذاتها باعتبارها عملية تنشئة وتثقيف. خاصة وأنّ التربية تسهم في بناء الفرد كهوّية حضارية وكمشروع للتواصل مع الآخر. ففي عالم تتقلّص فيه المسافات (زمن العولمة)، لا بدّ من إرساء قيم الحوار الحضاري والثقافي واحترام الآخر ثقافة وعقيدة، لا بدّ وأن يمرّ عبر إرساء قواعد تربوية تواصلية وحضارية تبدأ من بناء الهوّية الحضارية للفرد وتنتهي عند بناء تواصل حضاري.

لذلك يتحدّث بن نبي عن التربية الاجتماعية، وهي تربية تقوم على أسس الحوار والتعايش الثقافي مع الآخر، خاصة وأنّه يدرك أنّ الإنسان كائن ثقافي وحضاري يمتدّ وجوده وثقافته إلى أبعد من حدوده الجغرافية. وهي تربية لا تهدف إلى تزويد أفراد المجتمع بمعارف علمية فقط بل تزوّده باتّجاهات حضارية تواصلية تحقيقا للهوّية الحضارية للفرد وتواصله الحضاري مع الآخر المختلف عنه ثقافيا وعقائديا وحضاريا.

إنّ مختلف الإشكاليات الثقافية والحضارية التي يثيرها بن نبي كاهتماماته بشخصية الفرد المسلم وبثقافته وبحضارته، واهتمامه بماضيه وبمستقبله، والكشف عن مقوّمات النكوص اللاواعية في سلوكاته، ومقوّمات الحضارة الكامنة

في تراثه وثقافته، وفي طاقاته الذاتية، واهتمامه بالتغيير وبضرورة الأخذ بأسبابه وتفادي الوقوع فريسة الأمم والقيم الثقافية الغازية لثقافة المجتمع، واهتمامه بالذات المسلمة وتميّزها وتفاعلها مع الآخر المختلف عنه ثقافيا وعقائديا، واهتمامه بالتربية كونها أداة لبناء الهوية الحضارية للفرد وبناء الوعي الحضاري للمجتمع، وإيمانه العميق بالنماذج التاريخية الحضارية مجسّدة في الحضارات الآسيوية والإسلامية وغيرها. إنّ فهمنا لهذه الإشكاليات يجعلنا نصرّح بأنّ بن نبي هو أحد مؤسّسي الحوار الحضاري والثقافي في الفكر الحديث. (محمد بغداد باي، 2015-2016، ص. 213)

وبما أنّ التعايش الثقافي هو أحد أشكال الثقافة، فهو يرتبط بمفهوم التربية. هذا وإنّ الرهانات الكبرى للنظرية العامة في الثقافة عند بن نبي هي تكوين الإنسان الشخص (في مقابل الإنسان الفرد) الذي يتعايش ويتواصل في إطار مشترك من القيم مع أشخاص آخرين من ثقافته ذاتها أو من ثقافة غير ثقافته، تحقيقا لمجتمع الإنسان. وعليه، تصبح وظيفة النظرية العامة للثقافة هي تركيب لمجموعة من القيم المشتركة بين الأفراد في مجتمع واحد، أو بين مجتمعات مختلفة. والثقافة تتّخذ هنا من التربية وسيلتها ومن الحضارة غايتها يكون شكلها بناء الإنسان المتحضّر.

ومن هذا المنطلق، يصبح إيجاد التواصل مع الآخر المختلف ثقافيا هو رهان أساسي لنظرية بن نبي من خلال وسائلها التربوية التثقيفية والتعليمية. وبهذا يصبح التعايش الثقافي هو نموّ معرفي وتاريخي لنظرية بن نبي في الثقافة. ولكن، **ما هو التّعايش الثقافي عنده؟**

إنّ التعايش الثقافي هو مسألة من المسائل الثقافية، وهو ما يعبّر عنه بالتركيب الثقافي(**التركيب=التعايش**) (مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، 2000. ص.100) إذن، فكلّ تعايش

يكون مرهونا بتركيب ثقافي، أي التواصل مع المجتمعات الأخرى التي تشترك معها في بعض القيم الثقافية أو حتى تختلف معها في بعض القيم الثقافية الأساسية (من التعايش الداخلي إلى التعايش الخارجي).

هذا، ويرى مالك بن نبي ضرورة التعايش الثقافي في عصره، فهو القائل: **"التعايش ضرورة حتمية في عالم تهيمن فيه التكنولوجيا التي فرضت على كلّ مجتمع وجود الآخرين"** (مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، **2000**، ص.**94**). ويرى أنّ **"القرن العشرين يضع قضاياه في مواجهة ما خلّفه القرن التاسع عشر من مناقضات الاستعمار، فنحن نعيش هذا الصراع اليوم في جميع أشكاله، في انتظار ساعة التركيب التي تصهر النزعتين في السلام العالمي"** (مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص.**121**). وبهذا يسير التعايش الثقافي من دائرة المحلّية نحو دائرة العالمية أو الإنسانية في إطار ما هو ثقافي مشترك بين المجتمعات الإنسانية.

ويبرز حديث بن نبي عن التعايش وعن العالمية من خلال تصوّره للعمل المزدوج للثقافة حيث يقول: **"فهي أن تسجّل أسلوب الحياة في مجتمع معيّن وسلوك أفراده، وهي في الأخير ينبغي أن تخلق إمكانيات اتّصال وتعاون بين المجتمعات المختلفة"** (مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص.**115**). فعالمية الثقافة هي مشكلة ثقافية في جوهرها.

-الخاتمة:

نستنتج ممّا سبق ذكره، أنّ التربية في فكر مالك بن نبي هي عملية تثقيف متواصلة للفرد وللمجتمع معا، باعتبارها عملية اجتماعية متميّزة تقوم بنقل ثقافة المجتمع لأفراده وبعملية التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري. وقد حدّد شروط هذا التغيير والبناء في أربعة عناصر: المبدأ الأخلاقي والجمالي والمنطق العملي والعلم أو الصناعة. وهي مبادئ تتميّز بالفعّالية وبالتكامل في أهدافها،

فهي تشكّل نظاما تربويا واجتماعيا يسهم في إعادة البناء الحضاري للعالم الإسلامي. وإنّ ارتباط التربية بالثقافة لهو تعبير عن إمكانية التعايش مابين أفراد المجتمع الواحد منه إلى المجتمعات الأخرى، وبذلك تكون التربية وسيلة فعّالة لتحقيق النّمو الحضاري والحوار بأشكاله المختلفة بما فيه حوار الثقافات والحضارات، مع ضرورة المحافظة على الخصوصية الثقافية للمجتمعات العربية والإسلامية.

7. قائمة المصادر والمراجع:

1.7- المصادر.

- بن نبي، **مالك**، (1991). ***القضايا الكبرى***، (ط 1). دمشق: دار الفكر .
- بن نبي، مالك، (1987). ***المسلم في عالم الإقتصاد***. (ط3). دمشق: دار الفكر.
- بن نبي، **مالك**، (1986). *تأمّلات*. **(ط1)، دمشق:دار الفكر.**
- بن نبي، مالك، (1988). ***تأملات***. (ط2)، **دمشق:** دار الفكر .
- بن نبي مالك، (1991). ***تأملات***. (ط5)، دمشق: دار الفكر.
- بن نبي مالك، (1981). ***في مهب المعركة. إرهاصات الثورة***. (ط5)، دمشق: دار الفكر- مالك بن نبي، (1987). ***شروط النهضة***. (ط1)، دمشق: دار الفكر.
- بن نبي مالك، (2000). ***شروط النهضة***. (ط4) .دمشق: دار الفكر.

- بن نبي، مالك، (1986). ***وجهة العالم الإسلامي***. (ط1). دمشق: دار الفكر.
- **بن نبي، مالك، (1986). *مشكلة الثقافة*. دمشق : دار الفكر.**
- بن نبي مالك، **(2000)**. ***مشكلة الثقافة*.** دمشق: دار الفكر.
- بن نبي مالك، **(2000). *مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي*.** دمشق: دار الفكر.
- بن نبي، مالك، (1998). ***من أجل التغيير*.** دمشق: دار الفكر.
- بن نبي، مالك، (2000). ***ميلاد مجتمع*.** دمشق: دار الفكر.
- بن نبي، مالك، (2002). ***ميلاد مجتمع*.** دمشق: دار الفكر.

2.7- المراجع.

- القريشي، علي، (1989). ***التغيير الإجتماعي عند مالك بن نبي*، منظور تربوي لقضايا التغيير الاجتماعي المعاصر.** (ط1). مصر: دار الإعلام العربي.
- بغداد باي، محمد، **(2006). *التربية والحضارة*. الجزائر:** دار عالم الأفكار.

3.7- الرّسائل الجامعية.

- العابد ميهوب، **(2013- 2014). الفكر التربوي عند مالك بن نبي.** (أطروحة دكتوراة غير منشورة، تخصص علم الإجتماع، جامعة محمد خيضر، بسكرة).
- بغداد باي، محمد. (2015 -2016)**. تربية إنسان ما بعد الحضارة. (أطروحة** دكتوراه في علم النفس-غير منشووة، كليّة العلوم الاجتماعية، جامعة وهران 02).